نار جهنم تكفيراً عن «... إثمي وإثمك...». كما أنّ الأسلوب الدرامي في النص التوراتي غير موجود في القرآن.

وإضافة إلى ورود القصة في القرآن، يشكل الإطارُ المحيطُ بمضمون القصة مصدرَ اهتمامٍ خاصٍ بالنسبة إلينا. وقد يكون إمعانُ النظر إلى الطريقة التي يتم بها تقديم هذا الموضوع النموذجي، أمراً جديراً بالتسجيل. كما يمكن استخلاص بعض الاستنتاجات من أسلوب نسج هذه القصة في صورة سلسلة من التوجيهات والتعاليم المذهبية والتحذيرات المذكورة سابقاً عن طريق معارضتها أو تأكيدها. (راجع النص الأول المرفق).

وبعدُ، فإنّ الآية السابعة والعشرين من سورة المائدة تبدو مستمرة على نحو خاص في عرض للتعاليم الأخلاقيّة عن طريق إيراد الأمثلة التاريخية: ﴿وَاتْلُ عليهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدمَ بِالحَقّ..﴾. كما أنّ قصة قابيل وهابيل نفسها مشفوعةٌ بجملة من الوصايا الأخلاقية والعملية ذات الأهمية الدينية والدنيوية. غير أن ترتيب الموضوعات في هذا المقطع الزاخر بالألوان يبدو في الحقيقة مفضياً إلى إبراز قصة قابيل وهابيل بوصفها عقدةً روائية حقيقية. بل يخرج المرء بانطباع مؤدّاه أنّ السياق القرآني يشحن قصة «ابنَي آدم» برسالة دينية وأخلاقية بالغة النموذجية، وربما بطريقة أقوى وأكثر تأكيداً مما في النصوص الدينية السابقة: إذ، يحتل «القربان» المرتبة الأولى في القرآن أيضاً ﴿... قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾. ولكنّ الحثّ على مخافة الله إضافة إلى توبة قابيل والإلزام السماوي للناس باحترام الحياة الإنسانية واردةٌ أيضاً وعلى المستوى نفسه من التأكيد في القرآن. (راجع النص الثاني المرفق).

يتعيّن علينا، بطبيعة الحال، أن نتذكر في سياق الصراع الأخوي أيضاً أن العائلة، بحسب المبادئ والمثل العربية القديمة، كانت، مثلها مثل قرابة الدم الوثيقة، تنطوي على قيمة كبيرة جداً. فجريمة قتل الأخ كانت تُعتبر من أكثر الأفعال شناعةً وبشاعة، وإن كانت عقوبتها هي الإعدام. وإنّ من الصعب تصور قيام أحد ابنيْ آدم، وهو نبي في عرف الإسلام، باقتراف مثل هذه الجريمة ـ والأحكام القرآنية شديدة الوضوح في هذا الصدد.

إنّ تقديماً أكثر تجريداً للقصة في القرآن، أو وصفاً للصراع بلغة ألطف وأرقّ مما في نصوص ما قبل الإسلام الدائرة حول قابيل وهابيل، ربما زادا من ترسيخ هذه الفكرة بطريقة ما. ومن جهة أخرى، فإنّ السياق الاجتماعي الثقافي الذي أُنزل فيه القرآن على النّبيّ، يفسِّر غلبة الوجهين الكامنيْن في موضوع القصة القرآنية، وأحدهما هو ضرب مثالين متقابلين، والآخر هو الوجه التعليمي، وكلاهما يتناسب مع الإطار النظري العام للإسلام.

٢ ـ ٢ ـ ومن المراجع الكلاسيكية اللاحقة للقرآن التي تورد أسطورة قابيل وهابيل، نجد كتابَيْ **قصص الأنبياء** للثعالبي (ـ ١٠٣٦م) والكسائي، والكتب التاريخية وخصوصاً ذلك الذي ألّفه ابنُ هشام (ـ ٨٣٣م)، والطبري (ـ ٩٢٣م)، والمسعودي (ـ ٩٥٦م)، وآخرون، أو كتاب **المعارف** لابن قتيبة (ـ ٨٨٩م) الذي يُعتبر عملاً أدبياً أكثر منه تاريخياً. غير أنّ أكثر هؤلاء الكُتّاب يميلون إلى تفضيل صياغة ثم إغنائها بعض الشيء أسطورياً، صياغةٍ شبيهة بتلك الموجودة في الهجّادة العبرية، وخصوصاً في بعض المراجع المسيحية السريانية. وحسب هذه الرواية فقد وُلدتْ لقابيل وهابيل أختان توأمان، وتعيّن على كلٍّ من الأخوين أن يتزوّج شقيقة الآخر. ولأنّ قابيل أصرّ على الزواج من شقيقته التي كانت أكثر جمالاً، فإنّ المعركة نشبت بين الأخوين ولم تُحسم إلا حين قَبِلَ الربُّ لأحدهما «قُرْباناً». مرة أخرى يجري إبراز أسطورة المرأة مصدراً للخلاف، أو الجنس دافعاً رئيسياً لسلوك الإنسان ـ إذا ذهبنا مذهب فرويد.

٣ ـ وبأسلوب مختلف تماماً يؤدّي موضوعُ خصومة الإخوة دوراً معيناً في أحد أنواع النثر القصصي الذي يمكن أن يُعرف بـ: المكافأة والتعويض. فهذا النوع من كتب الأدب يروي لنا قصصاً نموذجية عن ثواب الله وعقابه على أعمال الخير والشر التي يقوم بها البشر. وهي كتب ذات طابع تاريخي من جهة، ومعنوي ـ أخلاقي من جهة أخرى، وترسم بطريقة خاصة «صوراً حياتية لا تخلو من رؤى متعاطفة». وهي لا تحتقر الحكايات الشعبية، ولكنها تبقى رصينةً وواقعية. ومؤلفات هذا الجنس الأدبي تحمل أحياناً عنوان **المكافأة**، مثل كتاب أحمد بن يوسف بن الدّاية (ـ ٩٥١م)، وأحياناً أخرى عنوان **الفرج بعد الشدة** مثل الكتيّب الذي ألفه علي بن محمد المدني (ـ ٨٤٩م)، أو ابن أبي الدنيا (ـ ٨٩٤م)، [والقاضي أبو علي] التنوخي (ـ ٩٩٤م) فيما بعد.

فموضوع العداوة بين الإخوة، مثلاً، يَرِدُ مرتين في القصص الواحدة والسبعين الواردة في كتاب **المكافأة** لأحمد ابن يوسف، أحد أساتذة هذا الجنس الأدبي. وعلى الرغم من عدم التفصيل في المقطعين المعنيين، فإنّ المؤلف يحرص على استخدام هذه المقولة منطلَقاً لروايةِ قصةِ حدثٍ نموذجي عن مكافأة الله. أريد هنا أن ألفت النظر إلى قصة واحدة فقط وهي تلك التي جاءت في فصل يحمل عنوان «حُسْن العقبَى»، حيث يتم الكشف عن العداوة بين المهدي وأخيه الأصغر غير المعروف كثيراً: جعفر، خلال حياة أبيهما الخليفة العباسي: المنصور. ففي هذا السياق يحدّثنا أحدُ الرواة عن تجربته الأسطورية مع مكافأة الله بعد إطلاعنا على حقيقة أن هذا الراوي كان شديد القرب من الأمير المغدور: جعفر، خلال

حياة الخليفة المنصور، في المعارك التي خاضها جعفر هذا ضد أخيه المهدي. وبعد تولي المهدي لمنصب الخلافة، تقوم الشرطة باعتقال الراوي المهدَّد بالإعدام، ولكنّ مصادفة سعيدة لا تلبث أن تقلب أقداره رأساً على عقب، إذ يأمر الخليفة لا بإبقاء الراوي على قيد الحياة فحسب بل وبتمكينه من العيش حياةً خالية من الهموم أيضاً عبر إعطائه ألفاً من الدنانير. ويمكن القول إنّه انعطاف غير متوقع لمسار الأحداث ولكنه تعبير صريح عن اشفاق الله المؤكد على مَنْ سبق أن قدم المساعدة للأمير الأضعف: جعفر. وقد تكون تلك هي «المكافأة» المناسبة على سلوك جيّدٍ سلكه صاحبُنا الراوي في حياته.

٣ ـ ٢ ـ ويجري التعامل مع العلاقة الأخوية والخصومة بين الإخوة في النصوص الأدبية في سياق آخر. ولكن الإخوة هنا ليسوا أخوة حقيقيين، بل أخوة في الدين والفكر. فعيون **الأخبار**، مثلاً، لا يكتفي بإيراد فصل كامل مفعم بالتنوير بعنوان «الإخوان»، بل يتضمن أيضاً فصلاً آخر بعنوان «عتب الإخوان والتباغض والعداوة».

٣ ـ ٣ ـ غير أنّ هناك في التاريخ الإسلامي حرباً بين أخوين باتت أشبه بالأسطورة، ألا وهي تلك المعركة التي نشبتْ بين ابني الخليفة العباسي الشهير هارون الرشيد، أي بين الأمين الذي كان ذا شخصية أقرب إلى الشخصية العملية، وأخيه المأمون الخلوق والواسع الاطّلاع والمعرفة. وإنّ ذكريات العداوة بين هذين الأخوين مسجّلةٌ في الكثير من الكتب التاريخية المعروفة لمشاهير الكتّاب من أمثال الطبري، وابن الأثير، واليعقوبي، والدينوَري. وبالفعل فإنّ من الممكن لكليهما أن يبرز بوصفهما «نمطين نموذجيين» مفعمَيْن بالحياة لظاهرة الأخوة الأعداء المتقاتلين في التاريخ الإسلامي.

يروي التاريخ أنّ الرشيد فضّل الأمين في ولاية العهد على أخيه غير الشقيق المأمون الذي يكبره بستة أشهر ومن أم جارية. وخلال حكم الأمين تتحول «الحرب الباردة» بين الأخوين غير المتكافئين إلى «حرب ساخنة». ولدى تعرض الأمين للاغتيال سنة ٨١٣م دون أن تكون هناك أيّة علاقة مباشرة لأخيه بذلك الاغتيال، يتمكن المأمون من استلام دَفّة حكم الامبراطورية الإسلامية. وهذه العداوة بين الأخوين ربما تعززتْ، بل وفُرضتْ، جرّاء التنافس الذي كان قائماً بين العراق وعاصمة الأمين بغداد من جهة، وإقليم خراسان ومعه بلاد فارس المؤيِّدة عموماً للمأمون من جهة ثانية. وما لبث هذا الصراع الشخصي بين الأخوين أن تطور لاحقاً ليصبح بُعْداً من أبعاد الصراع بين النزعتين العربية والفارسية في التاريخ العباسي المبكر (وإن لم يكن هناك، بالتأكيد، أيُّ اختلاف إثني بين الأخوين).

٤ ـ يمكن التماس موضوع «الإخوة الأعداء» أيضاً، ولو ببنية مختلفة بعض الشيء، في قصص الخيال العربية، ولاسيما تلك المعروفة في المغرب وسورية، حيث تروى قصةُ أبناء أحدِ الملوك أو التجّار، وعددُ هؤلاء الأبناء ثلاثة أو ستة أو سبعة يقرِّرون قتل الأخ الأصغر. ويمكن اعتبار هذه القصة مميِّزةً بمعنى من المعاني. وما يزال هذا الأدبي موجوداً في بعض الحكايات البدوية المأخوذة من فلسطين الغنية بتراثها التاريخي. وكما أشار اينو ليتمان إشارة موجزة ولكنها دقيقة، فإن قصة يوسف القديمة التي تشكل حكايةً مستحبّة أيضاً في قصص الخيال الشرقية، يمكن العثور عليها، معدَّلةً، مرةً بعد أخرى. ففي حكاية عن أبناء الأمير محمد بن أجود، مثلاً، يخطط الأخوة لقتل الابن المحبوب والمتميز لزوج الأب الثانية الذي يصبح خطراً عليهم. وعملاً بنصيحة الأخ الأصغر يُلقَى بالأخ غير الشقيق في الجُبّ، ولكنّ المصادفة السعيدة، كما في حال يوسف، تتمخض عن نجاته.

ولمّا كانت قصصُ الخيال حكاياتٍ ذات أصول متعددة إلى حدود معينة، وقصصُ مختلف الأقوام والثقافات متداخلةً ومتشابكة (كما في **ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة**)، فإننا لن ندخل في المزيد من التفاصيل حول هذا الجنس الأدبي.

ثالثاً

ثمّة، أيضاً، عدد من الأعمال الأدبية العربية الحديثة التي تتناول موضوع الصراع النموذجي النمطي بين الإخوة لتكيِّفه بما يخدم أغراضها.

١ ـ فهناك، أولاً، رواية **أولاد حارتنا** الساحرة لنجيب محفوظ، حيث تتم معالجة الصراع بين الإخوة مرتين: مرةً بين إدريس وأدهم، وأخرى بين ابنَيْ أدهم التوأمين قدري وهمام.

ولمّا كانت هذه الرواية ستُكتب بتكليف من جريدة **الأهرام** الشهيرة لنشرها على حلقات، فإنّ الكاتب نجيب محفوظ كان يدرك تمام الإدراك أنّ عليه مخاطبة جمهور واسع من القراء على مستويات شديدة الاختلاف من الثقافة والتعليم.

يقوم محفوظ، مستمدّاً مادّتَهُ من تاريخ البشرية، مع الإفادة من سائر أشكال الحرية المتاحة له ككاتب، بوضع حبكة للرواية يجري سردها لا بأسلوب بالغ الإثارة فحسب بل وبطريقة يمكن أن يفهمها قطاع واسع من القراء أيضاً، وهذا هو الأمر الأهم. ويجعل رسالته واضحة، وهي توجيه النقد إلى المظالم الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع المصري. وقد قام محفوظ بوضع أحداث القصة في «الحي ـ الحارة»: في ذلك العالم المصغّر الذي يعكس مشكلات الناس

اليومية والذي يمكن لجميع أهالي سائر أحياء القاهرة أن يتعرّفوا على أنفسهم فيه. ويستخدم صوراً مجازية يمكن أن نفترض أنّ عامة النّاس يعرفونها وأنها ذات جذور عميقة لدى قرّاء اللغة العربية. أضفْ إلى ذلك أنّ المؤلف يلوذ بهذه الإحالات بصورة محكمة دون أن يبعث على الملل، كما يتجلى في العديد من مقاطع الكتاب وفصوله.

تُحدِّثنا الرواية عن مؤسس «الحَيّ» الجبلاوي الذي هو الجد والأب، وعن ولديه غير المتكافئين: أدهم الذي هو تجسيد حيّ للبطل الإيجابي، (ولكنه أكثر من ذلك)، وأخيه ادريس. والصراع الذي يدور بينهما مبني على تلك القصة القديمة المعروفة لهابيل وقابيل، وإنْ لم يَلْقَ أدهم المصيرَ الذي لقيه جدُّه النمطي القديم، لأنّ الاعتماد الأول على الأسطورة الشهيرة يبقى منصبّاً على الحبكة الخارجية. فالتفاعل الداخلي بين الأخوين يتم إجمالاً بأسلوب أكثر تنوعاً وأشد تعقيداً، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإنّ شخصيات وموضوعات نمطية مختلفة نجدها متقاطعة ومتداخلة في صورة هذين البطلين:

فليس أدهم هو هابيل فقط بل يجسد أيضاً الخير والطُّهر والحق ـ إنه الملاذ المثالي، النمط النموذجي للإنسان. أضفْ إلى ذلك أنّ أدهم هذا يتحلّى أيضاً بصفات آدم؛ فليس الاسم وحده، وإنّما جملة من السِّمات المميِّزة لشخصيته الأدبية مع تفاصيل الحبكة تذكّرنا هي أيضاً بأوجه الشبه: يلتقي أدهم بزوج المستقبل حين تظهر هذه فجأةً أمامه في حديقة البيت الكبير لعائلة الجبلاوي ـ في الفردوس ـ حيث ينعكس ظلها على الأرض كما لو كان منبثقاً من أحد أضلاع أدهم. وكذلك فإنّ أدهم هو الذي يجسِّد شخص الأب الأول لأطفال الحارة، كما أنه الشخص الذي يغويه إدريس لدفعه إلى التمرد على الجبلاوي، وتُقنعه زوجُه الحامل بالاطّلاع على كتاب الجبلاوي الممنوع (الذي يحتوي على «الوصايا العشر» العجيبة) في سبيل الحصول على «المعرفة» عن المستقبل، وهو الذي يتم أخيراً طرده ـ مع زوجه ـ من البيت الكبير وجنة حديقته التي يولع بها أكثر من أيّ شيء آخر، وتضطر عائلته المتنامية للسعي إلى كسب القوت من الخلاء ومن النزر اليسير الذي يكسبه من عمله.

أما إدريس فهو نقيض أدهم اللاحق. وهو وثيق الارتباط، على صعيد الاسم العربي، بإبليس، أي الشيطان. وبعد قيام الجبلاوي بطرد إدريس من البيت الكبير بسبب سلوكه الشائن (ولكن ذلك يتمّ قبل طرد أدهم)، يتطوّر إدريس هذا تدريجياً ليغدو تجسيداً حيّاً للشر. فهو لا يقف عند حدود تجسيد الشخص الذي يَكْره أخاه، بل يتجاوز تلك الحدود إلى معارضة أفعاله بصورة مطّردة وصولاً إلى تدمير حياته ـ وإن لم يقم بقتله جسدياً. وكما تقول الرواية فإنّ إدريس ليس إلا شخصاً «استحال شرّاً مجسّداً»، شخصاً لا يجلب للآخرين الذين يجعلهم ضحاياه إلا الأذى المتاعب. وذات مرّة يقول أدهم لإدريس: «الفساد والدناءة والوضاعة؛ هذه هي صفات المخادعين الكاذبين» (من أمثالك). ويتابع كلامه كما لو كان يتحدث بينه وبين نفسه قائلاً: «كلما خلوْتُ إلى نفسي في الظلام جاء الشيطان فأشعل ناره [والنار هي التي خرج إبليس منها حسب ما جاء في القرآن] وعربد فأفسد خلوتي!»

وبالفعل فإنّ نجيب محفوظ ينجح، بالانطلاق من شخصية إدريس/إبليس الشبيهة بشخصية قابيل، في تطوير فكرة أدبية محددة ذات جذور عميقة في تراث الأدب العالمي بأسمى معانيها وأفضلها. وهكذا فإنّ إدريس يرمز ـ على النقيض من أدهم ـ إلى قوة متغطرسة لا تحترم شيئاً. إنه النقيض الذي لا يعرف معنى الراحة والاستقرار؛ إنه المنبِّهُ الدائم والمنتقد الأبدي. مرّةً يقول ادريس لأدهم، مثلاً، ما يلي: «إنك تكرهني يا أدهم لا لأنني كنت السبب في طردك ولكن لأنني أُذكّرك بضعفك» ـ ومثل هذا الكلام يبيِّن لنا بوضوح أنّ إدريس ينتمي إلى شخصية مفيستو بمعناها «الفاوستي» لدى غوته، إلى تلك «الروح الرافضة على الدوام»، إلى ذلك «الذي يعتزم إتيانَ الشرّ ولكنه يخلق الخير» عبر التقائه بالناس، بأدهم في هذه الرواية، بوصفه ممثلاً لمتطلبات حياة الإنسان على الأرض التي يمكن الحصولُ عليها عبر الاعتراف. إنّ إدريس يمثّل أيضاً طاقةً تمكّن الإنسان من تحقيق النضج والتطور. ومن جهة أخرى يبدو أنّ مقولات معيّنة مثل «الخير» و «الشر» ـ كما يلاحَظُ في الجزء الثاني من ملحمة **فاوست** ـ سيجري استبدالها جذرياً بـ «الجهد المطلق» الذي يجسّده إدريس من ناحية، وبنوع «من الإذعان شبه الكامل» الذي يمثّله أدهم من ناحية ثانية.

غير أنّ موضوع هابيل وقابيل لا يلبث أن يظهر مرة ثانية

في هذه الرواية معبَّراً عنه بشخصيتَي ابنَيْ أدهم: همام وقدري. وهنا فإنّ قدري المشاكس يعلن صراحةً أنه هو الذي يشبه عمه إدريس أكثر من أبيه. وبصورةٍ أكثرَ جلاءً مما في شخصية إدريس بالذات، يمثّل قدري «المتمرد» «الثائر». إنه الشخص الذي يدعو علناً إلى مساءلة نظام الحارة. وهو شديد الإعجاب بجده القوي من جهة، ومجسِّد لنموذج الناقد القاسي جداً من جهة أخرى. ففي مواجهة أشكال القوة الفظّة، والفقر، والبؤس، والاضطهاد السائدة في «الحارة»، وهي شرور تبدو مقيمة ولا مجال للخلاص منها، لا يقف قدري عند حدّ الشكّ بالنفوذ والعدل اللذين يتم إضفاؤهما على الجبلاوي الذي يُكْثر الناسُ من كَيْل المديح له، بل يطلق عليه اسم «الطاغية» أيضاً، ليصل، آخرَ المطاف، إلى التشكيك بوجوده كلياً، غير أنه منبهر بآيات نشاط إدريس الدائم وحيويّته المتدفقة. إن طاقة التمرد هذه تستمر فيه هو ومعه لأنه يمثّل سائر العواطف والعيوب البشرية.

أما في شخصية همام الحسّاس الذي يخاف الله، فنجد صفات أبيه أدهم، وبالتالي صفات هابيل القديم. فهو ليس مهتماً بالحياة الدنيوية، وإنّما هو دائم الانشغال بالرغبة في رؤية «جده» الذي هو غاية حياته. ولا يكتفي همام بإضفاء ثوب الرهبة والخوف على جده، بل يضع فيه ثقته المطلقة أيضاً. لا غرابة، إذن، أن همام هو الذي يختاره الجبلاوي من بين سائر أفراد عائلة أدهم، ويسمح له بالعودة إلى فردوس البيت الكبير.

وقدري المحروم من هذه النعمة يقتل أخاه في شجار ينشب بينهما؛ ويقوم بإخفاء الجثة في الصحراء تحت تأثير الرعب من فعلته الشائنة، ولكن دون أن يحسّ بمشاعر توبة قوية.

يعود محفوظ بأبطاله إلى حكايةٍ تشكّل، كما رأينا، جزءاً من التراث الإسلامي القديم من ناحية، ولكنه، من ناحية ثانية، يتابع، ككاتب روائي، تطوراً أدبياً لموضوع قابيل وهابيل، تطوراً سبق أن بدأ في تاريخ الأدب الأوروبي خلال حقبة الباروك وحقّق اكتماله في عصر التنوير وخصوصاً في الحقبة الأدبية التي تُعرف بالعواصف والأزمات. وهذا ما يجعل الحكاية تتمخض عن حقيقةٍ أنّ كُلاً من همام وقدري ليسا تجسيدين مجردين للخير والشر ببساطة، على الرغم من أن قدري/قابيل يبقى أبيّاً، بل وسريع الغضب والثورة في الحقيقة، في حين يظل همام/هابيل متواضعاً وحالماً. ولكنّ عنصراً لا يلبث أن يتجلّى بوصفه خلاصة الصراعات الروحية ـ النفسية لدى الأخوين، لينضاف إلى الموضوع الأساسي في رواية نجيب محفوظ. فقدري لا يبقى ذلك الرجل الذي لا يستحق سوى الإدانة والشجب، وإنّما يغدو، كما في أدب عصر التنوير، صاحبَ هواجس ونزعات أو انحرافات نفسية جديرة بالملاحظة والتأكيد. إنّ المؤلف يمنحه حتى فرصةَ التوبة، أو يرسم شخصية قدري ـ كما فعل ميتاكلوبستوك بشخصية قابيل في كتاب **موت هابيل** الصادر سنة ١٧٥٩ ـ بوصفها، ولو جزئياً، شخصية انطوائية مثقلة بالاضطرابات والهواجس الداخلية العميقة.

بل ينجح محفوظ في إثارة قدر أكبر من الاهتمام لدى القارئ بـ «الموقف العقلي» الذي يتخذه قدري الذي يصبح قاتلاً، بالمقارنة مع همام التقي والورع. فقوة قدري واندفاعاته العملية اللاهبة ـ لا فيما يخص علاقته بعشيقته هند التي يحبها، فحسب ـ هي التي تطغى على الرواية التي من شأنها في الحقيقة أن تذكّرنا بقصيدة اللورد بايرون الملحمية الشهيرة: «قابيل» (١٨٢١)، حيث تتم إعادةُ صياغة شخصية قابيل في النهاية على غرار شخصية مناضل بروميثي يكافح ضد سائر أشكال الزيف والكذب والظلم، شخصيةِ بطلٍ فاوستيٍّ دائبِ البحث عن الحقيقة. وهذه القصيدة الملحمية كانت، بالمناسبة، سبباً لوصم بايرون بالتجديف ولإدانة القصيدة إدانة شاملة من قِبل المسيحيين المتعصبين. ومن المعروف أنّ الكاتب نجيب محفوظ يتعرض حتى اللحظة، ولو من جانب طرف آخر، لقَدْرٍ مماثل من اللوم والشجب.

٢ ـ أخيراً أريد أن أشير إلى النص المسرحي الحديث جداً الذي يحمل عنوان **ملحمة السراب**، وقد كتبها الكاتب السوري الشهير سعد الله ونوس قبل أشهر قليلة [من تاريخ انعقاد المؤتمر في حزيران عام ١٩٩٦].

الاستنتاجات

١ ـ من شأن معاينة النصوص العربية المختارة ذات الصلّة [بموضوعنا] أن تلفت النظر إلى حقيقةِ أنّ أسطورة «الأخوة الأعداء» القديمة واضحة في الإسلام، حيث جرى، هنا أيضاً، تطوير هذه الأسطورة لتصبح الإطار المناسب لإحدى المقولات أو الموضوعات الأدبية. وهذه الفكرة مؤكدة لا فيما يخص شخصيتَيْ قابيل وهابيل الأسطوريتين فحسب، بل وفي الأدب العربي ككل، قديمِهِ وحديثِهِ على حد سواء. ويمكن القول إنّ ظهور هذه الموضوعة يكون ظهوراً متقطعاً مبعثراً أكثر منه ظهوراً مستمراً مطّرداً. ولكن انتشارها عبر سائر العصور والأجناس الأدبية يمكن التماسه في الأدب القصصي الموروث من مرحلةِ ما قبل الإسلام، في الشعر الكلاسيكي، وفي القرآن، وفي الأمثال العربية، وخصوصاً في بعض المؤلفات الأدبية والأسطورية التي ترجع إلى العصور الوسطى، فضلاً عن الروايات والنصوص المسرحية العربية الحديثة.

٢ ـ يكون الصراع بين الإخوة في المؤلفات التي تناولناها:

أ ـ نتيجةً لأسباب إنسانية واضحة في أغلب الأحيان: كالصراع على السلطة وعلى النساء، أو في سبيل انتزاع الاعتراف من سلطة معينة كالأب أو الحاكم أو الرب (كما في قصة شرحبيل وسلمة الجاهلية، وقصة هابيل وقابيل في القرآن وما بعده، وقصة الأمين والمأمون التاريخية).

ب ـ ولكن الصراعات الفردية المعالَجَة في الأدب تبدو متداخلةً مع جملة واسعة من الخصومات الاجتماعية والثقافية والدينية (مثل الخصومات بين قبائل متنافسة، أو بين أقاليم مختلفة ولكنْ متنافسة، أو بين جماعات أثنية ـ ثقافية مختلفة... الخ، كالتنافس بين النزعتين العربية والفارسية المرتبطتين على التوالي بالأمين والمأمون).

ج ـ غير أن الموضوع قبل كل شيء هو مرآة تعكس تنافساً مجسداً بين الخير والشر في دنيا البشر؛ إنّه، بعبارة أخرى، التعبير الأدبي عن مواقف فكرية متضاربة: كالدعوة إلى الاستقرار النموذجي، والوعي بالتراث، واحترام قيم ومراجع معينة، ومخافة الله؛ بل عن نوع من الركود والعجز عن متابعة الحياة (كما في شخصيات هابيل القرآني وأدهم وهمام لدى نجيب محفوظ) من جهة. ولكن نقائض هذه الشخصيات لا تمثّل، من الجهة المقابلة، الإجرام وغياب الاحترام وحدهما، بل تثور أيضاً على القيم السائدة والسلطة الطاغية، بما يمكنها من تجسيد نوع من الحركة، ومن التطور النشيط باتجاه تحقيق النضج والتقدم على طريق المعرفة بالنسبة إلى الإنسان.

٣ ـ يكشف لنا الأدبُ العربي الحديث، خصوصاً، وبوضوح أنّ نمط الإخوة الأعداء وموضوعه، كليْهما، محمّلان بعض الشيء بأساطير وموضوعات عامة أخرى مستمدةٍ من تصوّر إسلامي «أصيل» لجملة من الأفكار والآراء، أو مقتبسان من ثقافات ما قبل إسلامية أو غير إسلامية، أو يتم إغناؤها بمثل هذه الثقافات. وأمثلة ذلك نجدها في سلسلة من الشخصيات مثل شخصية الجد النموذجي آدم والنقيضين البشريين، إبليس ومفيستو، أو فاوست ذلك النمط النموذجي للباحث الدؤوب عن المعرفة. وفي هذه الحالة الثانية، خصوصاً، يكون الموضوع شديد الغنى بالتوتر وقابلاً لأن يتطور إلى أداةٍ مناسبةٍ لأيِّ مؤلِّفٍ يريد أن يعالج مشكلات المجتمع الإنساني، أو قادراً، بوصفه مسؤولاً عن تقديم النصائح إلى المجتمع، على التعبير عن رأيه الفردي وعلى التواصل مع محيطه الاجتماعي.

٤ ـ في الأدب العربي قبل الإسلام وبعده عموماً تؤدّي توبةُ القاتل دوراً مركزياً. إذ يبدو أنّ الموضوع الذي تصْحَبُهُ رسالةٌ أخلاقية دقيقة، ولكنها محسوسة في قصة هابيل وقابيل القرآنية، قد تطور في الإسلام إلى معيار من معايير التثقيف الأخلاقي الشائعة التي تعمد إلى ضرب الأمثلة. ونظراً إلى أنّ نمط الصراع المعنيّ قد يكون معروفاً بصورة عامة، فإنّه يشكل في بعض الأعمال جزءاً أساسياً من البنية الروائية، اتساعاً وعمقاً، وعلى صعيد الحبكة الروائية كنقطة انطلاق لإطار الحكاية أو القصة. ولكن نموذج الأخ، في الأدب العربي أيضاً، يدمغه شكله المستقل دينياً وثقافياً، وهو مع ذلك مميّز له ومتكرر؛ يبقى الأمر هو هو في سائر الأجناس الروائية المختلفة فيما يخص المضمون والشكل على التوالي.

يسلّط نجيب محفوظ الضوء، عبر استخدامه لموضوعة «الإخوة الأعداء» في «أولاد حارتنا»، على المظالم الاجتماعية في المجتمع المصري

وبالاشارة إلى رواية محفوظ ومسرحية ونوس، خصوصاً، يمكن التأكيد على أن هذين المؤلفين العربيين المعاصرين قاما ـ عبر إرجاع شخصياتهما الأدبية إلى أساطير قديمة متوارثة ـ بتمثل جوهر العالم لا في شخصيهما فقط بل وبلفت أنظار القرّاء والجمهور إليه أيضاً. ويصبح هذا الأمر شديد الوضوح عبر الأسلوب الفني الذي يتّبعه المؤلفان في عملية تعديل موضوعة الإخوة الأعداء وتكييفه. وانطلاقاً من جماليات المقاربة والمقابلة لدى محفوظ، وهي الجماليات التي تحدد شخصيات الأبطال وبنية تحركاتهم، يمكن أن نؤكّد أن هذا الأسلوب يسلّط الضوء على المشكلات الجوهرية للحياة اليومية. كما أنّ قصد المؤلفَين يبقى على الدوام واضحاً ومفهوماً بفضل اللغة المجازية الفنية التي يستخدمها كلٌّ من محفوظ ونوس.

٥ ـ من المثير أن هذا الموضوع القديم في الأدب العالمي قد تمكن في بعض الكتابات العربية الحديثة من أن ينتعش بكل غناه وتنوعه الفني. فهو لا يكتفي بالاستمرار في التطبيق المجرّد بل يتخذ صيغاً جديدة تماماً على صعيد التكيف. وهذه الحقيقة لا تقف عند حدود تقديم برهان إضافي على أنّ الأديان والثقافات والآداب تتبادل التبعية وتخترق سائر الحدود المصطنعة، بل إنّها قد تشكّل مرّة أخرى دليلاً عاماً على القيم العليا والمساهمات الحية للأدب العربي في هذه الثقافة العالمية الواحدة التي نعيش بين أحضانها.

المرفقات

1: عن سياق قصة قابيل وهابيل في القرآن:

المائدة/٨ : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قَوّامين لله شُهَداءَ بالقِسْطِ ولا يَجْرِ منكُمْ شنآنُ قَوْمٍ على ألاّ تَعْدِلوا اعْدِلوا هو أَقْرَبُ للتقوى واتّقوا اللّهَ إنّ الله خَبيرٌ بما تعمَلون﴾».

المائدة/١١ : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكُروا نِعْمَةَ الله عليكم إذْ هَمَّ قَوْمٌ أن يَبْسُطُوا إليكُمْ أيديهم فَكَفَّ أيديهم عنكم واتّقُوا الله وعلى الله فَلْيَتَوَكّلِ المؤمنون﴾ .

المائد/١٢ : ﴿... فَمَنْ كَفَرَ بعد ذلك منكم فقد ضلّ سَوَاءَ السَّبيل﴾.

المائدة/١٥ : ﴿يا أهْلَ الكتاب...﴾.

المائدة/١٦ : ﴿يهدي به اللّهُ مَنِ اتّبَع رِضْوانَهُ سُبُلَ السلام وَيُخْرِجُهُمْ من الظُّلُماتِ إلى النورِ بإذْنِهِ ويهديهم إلى صِراطٍ مستقيم﴾.

المائدة/٢٠ : ﴿وإذْ قال موسى لقومه يا قَوْمِي اذْكُروا نِعْمَةَ الله عليكم...﴾.

المائدة/٢٧ : ﴿واتْلُ عليهم نَبَأَ ابنَيْ آدمَ بالحق...﴾.

2: ما يقوله هابيل في القرآن:

المائدة/٢٨ ـ ٣٢ : ﴿لئنْ بَسَطْتَ إليّ يدَكَ لتقتُلَني ما أنا بِباسِطٍ يدي إليك لأقتلك إني أخافُ اللّه رب العالمين. إني أريد أنْ تبوء بإثمي وإثمِكَ فتكونَ من أصحابِ النار وذلك جزاءُ الظالمين. فطوّعَتْ له نفسُهُ قَتْلَ أخيه فَقَتَلَهُ فأصبح من الخاسِرين. فبعث اللهُ غُراباً يبحث في الأرض ليُرِيَهُ كيف يواري سَوْءَةَ أخيه قال يا وَيْلَتي أعجَزْتُ أن أكون مثلَ هذا الغُرابِ فأواري سَوْءَةَ أخي فأصبح من النادمين. من أجلِ ذلك كَتَبْنا على بني إسرائيل أنّه مَنْ قتل نفساً بغيرِ نَفْسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قَتَلَ النّاسَ جميعاً ومَنْ أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعاً ولقد جاءتْهُمْ رُسُلُنا بالبيِّناتِ ثم إنّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لَمُسْرِفُون﴾.

3 ـ العلاقات الهيكلية بين بعض الشخصيات الأدبية في رواية **أولاد حارتنا** لنجيب محفوظ:

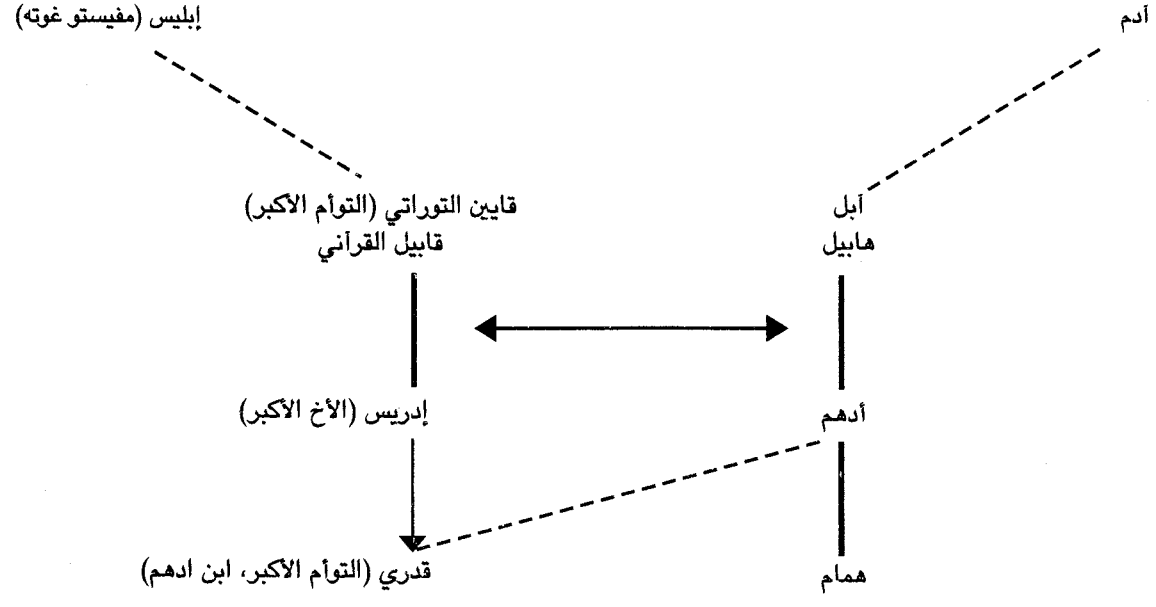

ترجمة: فاضل جتكر
دمشق